من أخبار المسافرين (٤٠)

من معاناة العلماء

إليك هذه القصة العجيبة حدثت لبعض علماء هذه الأمة الأجلاء والذين كانوا يعانون أشد المعاناة في سبيل العلم والبحث عن المعرفة ويتعرضون للمخاطر والمهالك، ومع ذٰلك لا يثنيهم خطر ولا يفلّ عزائمهم عارض.

القصة يرويها الإمام الحافظ أبومحمَّد عبدالرَّحمن بن أبي حاتم عن والده الإمام الحافظ أبي حاتم الرازي الذي كان من بحور العلم وممَّن طوَّفوا البلاد وقد برع في المتن والإسناد وجمع وصنَّف وجرح وعدَّل، وصحَّح وعلَّل، وقد ولد في سنة خمسٍ وتسعين ومائة وهو من نظراء البخاري ومن طبقته ولكنه عُمِّر بعده أكثر من عشرين عامًا.

وقد سُئل ولده عبدالرَّحمن عن كثرة سماعه لأبيه وكثرة سؤالاته له وطلبه للعلم علىٰ يديه فقال: ربما كان يأكل وأقرأ عليه، ويمشي وأقرأ عليه، ويدخل الخلاء وأقرأ عليه، ويدخل البيت في طلب شيء فأقرأ عليه.

وإليك الآن القصة التي يرويها عبدالرحمن بن أبي حاتم عن والده أبي حاتم محمَّد بن إدريس حيث يقول:

سمعتُ أبي يقول: خرجْنا من المدينة، من عند داود الجعفري، وصرنا إلىٰ الجار وركبنا البحر، فكانت الريح في وجوهنا، فبقينا في البحر ثلاثة أشهر، وضاقت صدورنا، وفني ما كان معنا، وخرجنا إلىٰ البر نمشي أيامًا، حتىٰ فني ما تبقى معنا من الزاد والماء، فمشينا يومًا لم نأكل

ولم نشرب، ويوم الثاني كمثل، ويوم الثالث، فلما كان يكون المساء صلَّينا وكنا نُلقي بأنفسنا حيث كُنَّا، فلما أصبحنا في اليوم الثالث، جعلنا نمشي علىٰ قدر طاقتنا، وكنا ثلاثة أنْفُسٍ: شيخٌ نيسابوري، وأبوزُهير المرورُّذِي، فسقط الشيخ مغشيًا عليه، فجئنا نحركه وهو لا يعقل، فتركناه، ومشينا قدر فرسخ، فصعفت، وسقطت مغشيًا عليَّ، ومضىٰ صاحبي يمشي، فبصر من بعد قومًا، قرَّبوا سفينتهم من البرِّ، ونزلوا علىٰ بئر موسى، فلما عاينهم، لوَّح بثوبه إليهم، فجاؤوه معهم ماءٌ في إداوة. فسقوه وأخذوا بيده، فقال لهم: ألحقوا رفيقين لي، فما شعرت إلاَّ برجل يصبُّ الماء علىٰ وجهي، ففتحتُ عيني، فقلتُ: اسقني فصب من الماء في مشربة قليلاً، فشربتُ، ورجعتْ إلىٰ نفسي، ثم سقاني قليلاً، وأخذ بيدي، فقلت: ورائي شيخٌ مُلْقى، فذهب جماعةٌ إليه، وأخذ بيدي، وأنا أمشي وأجُرُّ رجليَّ، حتىٰ إذا بلغْتُ إلىٰ عند سفينتهم، وأتوا بالشيخ، وأحسنوا إلينا، فبقينا أيامًا حتىٰ رجعت إلينا أنفسنا، ثم كتبوا لنا كتابًا إلىٰ مدينة يقال لها: راية ـ محلة عظيمة بفسطاط مصر ـ ، إلىٰ واليهم، وزوَّدونا من الكعك والسويق والماء. فلم نزل نمشي حتىٰ نفِدَ ما كان معنا من الماء والقوت، فجعلنا نمشي جياعًا علىٰ شط البحر، حتىٰ دفعنا إلىٰ سلحفاة مثل التُّرس، فعمدنا إلىٰ حجرٍ كبير، فضربنا علىٰ ظهرها، فانفلق، فإذا فيها مثل صفرة البيض، فتحسَّيناه حتَّىٰ سكن عنَّا الجوع، ثم وصلْنا إلىٰ مدينة الرَّاية، وأوصلنا الكتاب إلىٰ عاملها، فأنزلنا في داره، فكان يقدِّم لنا كلَّ يوم القرْعَ، ويقول لخادمه: هاتي لهم اليَقْطين المبارك. فيُقدِّمُه مع الخُبْزِ أيَّامًا، فقال واحدٌ منَّا: ألا تدعو باللَّحم المشئوم؟! فسمع صاحب الدَّار، وأتانا بعد ذٰلك باللَّحم، ثم زوَّدَنا إلىٰ مِصر.

ابتسـم

أخي المسافر أدعوك إلى ابتسامة مشرقة تطرد بها أحزانك وتُذهب بحلاوتها همومك، ازرع البسمة على محيّاك، وارسم البهجة على جنبيك، إيّاك والحُزن أو العبوس، احذر اكفهرار الوجه وتقطيب الجبين. فإنك بذلك تقتل نفسك وتدمّر قلبك.

ابتسم للحياة، اضحك في وجه الأيام، يقول عبدالله بن الحارث: ما رأيت أحداً كان أكثر تبسُّماً من رسول الله ﷺ. إذا كثرت همومك فابتسم، إذا زادت غمومك فابتسم، إذا قست عليك الأيام فابتسم، إذا اعترضتك الصعاب فابتسم، إذا اضطررت لفراق الأحباب والبعد عن الأصحاب فابتسم، فإن الحزن والانقباض، والبكاء والعويل لن يردّ من ذلك شيئاً، حارب اليأس، أحسن الظن، توقَّع الخير، أمِّل الفلاح، وترقب النجاح، فالزهر باسم، والغابات باسمة، والبحار والأنهار والسماء والنجوم والطيور كلها باسمة.

قال: «السماءُ كئيبةٌ!» وتَجهَّما ... قلتُ: ابتسمْ يكفي التجهُّمُ في السما!
قال: الصِّبا ولَّى! فقلت له: ابتسمْ ... لن يَرجعَ الأسفُ الصِّبا المتصرِّما!
قال: التي كانتْ سمائي في الهوى ... صارتْ لنفسي في الغرام جهنَّما
خانتْ عهودي بعدما مَلَّكتُها ... قلبي، فكيف أطيقُ أن أتَبسَّما؟
قلت: ابتسمْ واطرَبْ فلو قارنتها ... قَضيَّتَ عمرَكَ كلَّه متألّما!
قال: التجارةُ في صراعٍ هائل ... مثلُ المسافرِ كادَ يقتلهُ الظما
أو غادةٍ مسلولةٍ محتَاجةٍ ... لدمٍ، وتنفثُ، كلما لهثتْ دما!
قلتُ: ابتسمْ ما أنتَ جالبُ دائها ... وشفائها فإذا ابتسمتَ فربَّما..
أيكونُ غيرُكَ مجرماً، وتبيتُ في ... وجل كأنكَ أنت صرتَ المجرما؟

قال: العدى حولي عَلَتْ صيحاتُهُمْ أأُسَرُّ والأعداءُ حولي في الحمى؟
قلتُ: ابتسمْ لم يطلبوكَ بذمِّهمْ لو لم تكُنْ منهمْ أجلَّ وأعظما!
قال: المواسمُ قد بَدَتْ أعلامُها وتعرَّضتْ لي في الملابس والدُّمى
وعليَّ للأحباب فرضٌ لازمٌ لكنَّ كفي ليس تملكُ درهماً
قلتُ: ابتسمْ، يكفيك أنَّكَ لم تزلْ حيًّا، ولستَ من الأحبَّةِ مُعْدما!
قالَ: الليالي جرَّعتني علقماً قلت: ابتسم ولئن جرعت العلقما
فلعلَّ غيرَكَ إنْ رآكَ مرنِّماً طَرَحَ الكآبَةَ جانباً وتَرَنَّما
أتُراكَ تغنمُ بالتبَرُّم درهماً أم أنتَ تَخسرُ بالبشاشةِ مغنما؟
يا صاحِ، لا خَطَر على شَفتيكَ أن تتثلَّما، والوجه أن يتحطَّما
فاضْحكْ فإن الشهبَ تضحكُ والدجى متلاطمٌ، ولذا نحبُّ الأنجما!

إيليا أبوماضي

وبعد فإني أسأل الله تعالى أن يحفظك أينما كنت وأن يُزودك التقوى ويعمر قلبك بالإيمان، ويديم عليك نعمة الإسلام، ويكفيك شرّ المعاصي والآثام. أسأل الله تعالى أن يردّك إلى أهلك سالماً غانماً، وأن يعيدك إلى أبنائك، وأحبابك وإخوانك صحيحاً معافىً، وقد تحقّقت أمالك، وتيسّرت أمورك، وظفرت بمرادك، وحصلت بغيتك فيما يرضي خالقك بارك الله فيك وسدّد خطاك وأعانك في جميع أمورك. أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه، أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك. وإن كان لي من وصية إليك فإني أقول لك لا تنسنا من دعائك يا أخي.

مسك الختام

أوحشتني خلواتي بك من كل أنيس
وتفردت فعاينتك بالغيب جليسي
ودعاني الوجد والحب إلى المعنى النفيس
فبدا لي أن مهر الحب أنفاس النفوس
فكتبت العهد للحب على طرس الطروسي

اللهم لك الحمد على توفيقك وإحسانك وجودك وامتنانك.

اللهم إني أسألك أن تجعل ما قدمت ذخراً لي في صحائف الأعمال، ونوراً لي إذا انتهت الآجال، وأنيساً لي إذا ألقيت عصا الترحال.

اللهم اغفر به وزري، وارفع به قَدْري، وأعلِ به ذِكْرِي إذا انقطع من الدنيا خبري، ومُحيَ من الأرض أثري، وانتهى إليك سفري.

اللهم إني أقصد به وجهك، وأطلب به عفوك، وأستجدي به جودك، وأستدرُّ به عطفك، فاغفر زللي فيه واقبل منه ما كان صائباً، ولا تردني محروماً ولا خائباً.

اللهم إني أحبك وأحب من يحبك وأحب نبيك وكتابك وشرعك حبًّا لا يجارىٰ ولا يُبارىٰ، فاغفر لي فإنك كنتَ غفَّارا.

إني أحبك حباً ليس يبلغه همِّي ولا ينتهي فهمي إلى صِفتهْ
أقصىٰ نهاية علمي فيه معرفتي بالعجز منيَ عن إدراك معرِفته
الأنسُ ذِكْرُك، والسلوةُ طاعتُك، والسعادةُ حبك، والفلاح شرعك.

اللهم اعمر أيامي بطاعتك، وأوقاتي برضاك، وساعاتي بذكرك، ياأنيس المسافرين والحاضرين، ويا حبيب الطائعين، وسلوة المحزونين، ويا منفس كرب المكروبين، ومفرِّج هم المهمومين، نفِّس كربنا، وفرِّج

همَّنا، واغفر ذنبنا، وبلغنا فيما يرضيك آمالنا.

يارب إن ذنوبي قد أحطتَ بها علماً وبي وبإعلاني وإسراري
أنا الموحد لكني المِقرُّ بها فهب ذنوبي لتوحيدي وإقراري

اللهم يا من يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمائر الصامتين، يا من ليس معه ربٌّ يدعى، ولا إله يرجىٰ، ولا فوقه خالقٌ يخشىٰ، ولا وزير يؤتىٰ، ولا حاجب يرشىٰ، يا من لايزداد على السؤال إلاَّ كَرَماً وجوداً وعلى كثرة الحوائج إلاَّتفضلاً وإحساناً، نسألك اللهم العتق من النار، والفوز بالجنة.

تفيضُ نفوسٌ بأوصابها وتكتم عوّادها ما بها
وما أنصفت مهجةٌ تشتكي هواها إلى غير أحبابها

اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي لساني نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن خلفي نوراً، واجعل في نفسي نوراً، وعظِّم لي نوراً، ربِّ اشرح لي صدري، ويسر لي أمري.

اللهم إني أسألك الهدى التقى والعفاف والغنى.

اللهم احفظنا في حضرنا وسفرنا، وإقامتنا وظعننا، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين يا أرحم الراحمين، يارب العالمين.

وَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى إِخْفَاءِ حالٍ يَحُولُ بِهَا الأَسَى دُونَ التَّأَسِّي
وحُبُّكَ مَالِكٌ لَحْظِي وَلَفْظِي وإِظْهَارِي وإِضْمَارِي وحسِّي
فإنْ أَنْطِقْ، فَفِيكَ جَمِيعُ نُطْقِي وإن أسكُتْ فَفِيكَ حَدِيثُ نَفْسِي

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلامٌ على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

أخوكم ومحبكم/ **د. ناصر بن مسفر الزهراني**

مكة المكرمة ـ جامعة أم القرى

أهم المصادر والمراجع

١ـ القرآن الكريم.
٢ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، للمقدسي.
٣ـ اختبر معلوماتك، أيمن الإسكندراني.
٤ـ أدب الرحلة عند العرب، د. حسني محمود حسين.
٥ـ أعلام النساء، عمر كحالة
٦ـ الأغاني، أبوالفرج الأصبهاني.
٧ـ البداية والنهاية، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي.
٨ـ البيان والتبيين، الجاحظ.
٩ـ تهذيب سيرة ابن هشام، عبدالسلام هارون.
١٠ـ تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير، اختصره محمد نَسِيب الرفاعي.
١١ـ جامع بيان العلم وفضله، ابن عبدالبر.
١٢ـ الجليس الصالح، لأبي الفرج الحريري.
١٣ـ جمهرة أشعار العرب، أبوزيد القرشي.
١٤ـ جواهر الأدب، السيد أحمد الهاشمي.
١٥ـ الحنين إلى الأوطان حتى نهاية العصر الأموي، محمد إبراهيم
١٦ـ الدواوين الشعرية
١٧ـ رحلة ابن بطوطة
١٨ـ رحلة ابن جبير، ابن جبير.

١٩ـ رهبان الليل، سيد بن حسين العفاني.
٢٠ـ رياض الصالحين، لأبي زكريا يحيىٰ بن شرف النووي الدمشقي.
٢١ـ زاد المعاد، ابن القيم.
٢٢ـ سلة المعلومات، دار طويق للنشر والتوزيع.
٢٣ـ سير أعلام النبلاء، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي.
٢٤ـ السيرة النبوية، أبوالحسن الندوي.
٢٥ـ شاعرات العرب، عبدالبديع صقر.
٢٦ـ شرح القصائد العشر، الخطيب التبريزي.
٢٧ـ شعراء هجر، عبدالفتاح الحلو.
٢٨ـ صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، عبدالفتاح أبوغدة.
٢٩ـ صفة الصفوة، ابن الجوزي.
٣٠ـ صيد الخاطر، ابن الجوزي.
٣١ـ الطب محراب الإيمان، د. خالص جلبي.
٣٢ـ طرائف ونوادر، نايف معروف.
٣٣ـ عجائب الدنيا وغرائب البشر، محمد رفعت.
٣٤ـ عيون الأخبار، أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري.
٣٥ـ الفرج بعد الشدة، التنوخي.
٣٦ـ فيض الخاطر، أحمد أمين.
٣٧ـ في ظلال القرآن، سيد قطب.
٣٨ـ الكتب الستة.

٣٩ـ كل شيء عن النجوم، آن تري هوايت، ترجمة إسماعيل حقي.
٤٠ـ كل شيء عن البحر، فرديناند لين، ترجمة د. محمود محمد رمضان.
٤١ـ كل شيء عن الصحراء، سام ـ وبريل إبشتين، ترجمة د. مصطفى بدران.
٤٢ـ الكوكب المنير، أبوإبراهيم المصري.
٤٣ـ لسان العرب، ابن منظور.
٤٤ـ مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن، ابن الجوزي.
٤٥ـ مجلة الأدب الإسلامي العدد الأول.
٤٦ـ مجلة الرسالة.
٤٧ المدهش، ابن الجوزي.
٤٨ـ موسوعة الثقافة والمعلومات، مهدي سعيد رزق كريزم.
٤٩ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان.